وانها اغارة على تواطؤهم وتعاونهم مع السلطات ومظهر للتعايش السلمي بينهم وبين الاسرائيليين . بيد انه لا يمكن خنق الحقيقة خنقا تاما ، اذ كثيرا ما تتفلت التعابير عنها في ردود الفعل التلقائية للاحداث ، كما تبدو للمراقب شواهد عليها في كل لحظة في شوارع المناطق المحتلة ، اذ يلمسها المرء في الابتسامات الساخرة ، وفي النظرات ، وفي الشتائم المكتومة ، كما يتم الاعراب جهارا عن هذه الحقيقة اثناء المناقشات والاحاديث مع الاصدقاء الموثوق بهم ، كما انها تبدو من خلال مظاهر المقاومة السلبية من أولئك الذين يتجاهلون أوامر قوات الاحتلال ولا ينصاعون لها الا تحت طائلة التهديد بالحبس والتوقيف .

ما زال قطاع غزة مستعص على السلطات الاسرائيلية . فرغم الشبكة الدقيقة من اجراءات الامن الصارمة التي اقامها الاسرائيليون في القطاع، والتي ما انفكوا يدخلون عليها التعديلات والتحسينات طوال السنوات الخمس والنصف التي انقضت على الاحتلال ليبلغوا بها حد الاتقان التام والكمال في ميدان ضبط الامن والسيطرة على الاوضاع ، ما زال الفدائيون قادرين على اثبات وجودهم في القطاع ، سواء بالقاء القنابل اليدوية ، او بمهاجمة السيارات والدوريات المسلحة الاسرائيلية أو بالقيام باعمال التخريب . وكل الاجراءات والخطط الجهنمية التي نفذها الاسرائيليون في القطاع لم تفت في عضد المقاومة ونشلت في تحقيق الغاية التي توختها السلطات الاسرائيلية الا وهي استئصال النشاط الفدائي من قطاع غزة كليا . ولم يجد السلطات الاسرائيلية نفعا كل ما اقدمت عليه من اجراءات سواء كانت تعزيز قوات الامن والشرطة او اللجوء الى اضطهاد السكان بقسوة وفظاظة او حملات الابعاد والنفي الجماعي او عمليات الاعتقال والحبس والعقاب الجماعي ، وتفريق السكان وتشتيتهم داخل القطاع ، ومصادرة الاراضي لتقام عليها الكيبوتزات والمستوطنات اليهودية العسكرية منها وشبه العسكرية ، والقيام بقطع الاشجار والاسيجة لتعرية سطح الارض ، واشغال الالاف من سكان قطاع غزة بالعمل خارج القطاع سواء في الضفة الغربية او في اسرائيل ذاتها... كل هذه الاجراءات فشلت في تحقيق الغاية المنشودة ... صحيح انه تم حصر نطاق اعمال المقاومة المسلحة في القطاع والتخفيف من حدتها بصورة ملموسة ، بيد ان اعمال العنف ما زالت تحدث من حين الى آخر بصورة تكفي لابقاء قوات الامن الاسرائيلية في القطاع في حالة استنفار دائم طوال ساعات النهار والليل كما انها جعلت من القطاع منطقة مجرمة على الزوار الاسرائيليين والاجانب . فقد حدث في الليلة السابقة لوصولي الى قطاع غزة هجوم بالقنابل اليدوية في شارع عمر المختار . وتلا هذا الهجوم اعلان حظر التجول وعمليات تفتيش من بيت الى بيت ، واعتقال من وقعت عليهم القرعة للتحقيق معهم . وفي اليوم التالي فرض حظر التجول على مخيم الشاطىء ، فاستنادا للشائعات التي سرت في مدينة غزة ، قام احدهم بخط عبارة « ايلول الاسود » على زوارق الصيد الراسية على الشاطىء . وفي اليوم التالي دوى صوت انفجار في شارع عمر المختار فمزق السكينة المخيمة على المكان عند ساعة الافطار . وقد صادف ان كنت في بيت قريب من موقع الانفجار حيث كنت ازور بعض الاصدقاء . واعقب الانفجار اطلاق زخات من نيران الاسلحة الرشاشة، ووقع خطوات مكتومة لمشاة كانوا يسرعون الخطى نحو بيوتهم خوفا من التعرض للقبض عليهم وبالتالي المعاناة من الاجراءات المألوفة وهي استدعاؤهم الى مقر الامن العام لاستنطاقهم . وخرجت سيدة تعدو مسرعة من بيت مجاور ، اذ ان زوجها اصيب بجراح وحمل الى المستشفى . وقد اخبرني مضيفي ان الرجل المصاب هو بائع الخلوف المسن في شارع المختار .

وقد سألنا شابا كان يقف عند عتبة بيته « هل اصابته شظية » ، فاجابنا قائلا : « كلا ، لقد ضربه احد الجنود الاسرائيليين على وجهه بعقب بندقيته » .

تتعاقب الطلقات ، ثم تظهر رؤوس تطل خلسة خلال خيوط النور المتسرب من الابواب التي كانت تفتح بحذر وتقوم سيارات الجيب والشرطة الاسرائيلية بسد منافذ الزقاق . ويهمس رجل وهو يمر مسرع الخطى : « لقد حاصروا شارع المختار » . سكون ، ثم يجتاز رجل الزقاق بخطى وئيدة قادما من جهة شارع عمر المختار .

ويتحرك الرجل كمن يمشي في نومه ، وتشخص عيناه باتجاه نهاية الزقاق حيث ينعطف في اتجاه المقبرة . وكان يحمل بين يديه رزمة صغيرة مجللة بشال . انه طفل ميت . وكان يلحق بالرجل فتى